

من فنون الشعراء

قلم فضيلة الأستاذ أحمم الشرباصي المدرس بالزهر الشريف

قلم يشغل له بالا ولم يوقظ له ففكرا
فيجيبه زياد :

رويدا سيدي مهلا ولا تستغرب الأمر
لقد سقناه بالأمس فحج الكعبة الفراء
فلما لمس الركن ومست يده السترا
وقلنا الآن من ليلى ومن فتنها يبرا
صمناه يناجي الله من ساحتها الكبرى

ابن عوف : وماذا قال ؟

زياد :

ماتاب من العشق ولا استبرا
ولكن قال : يا رب ملكت الخير والشرا
فهات الضران كان هوى ليلى هو الضرا
وإن كان هو السحر فلا تبطل لها سحرا
ويا رب هب السلوى لغيري وهب الصبرا
وهب لي موة المضنى بها لا مية أخرى
وفي مكان آخر نجد ليلي - وهي أعلم القوم بقيس -
تقول عنه :

وقيس ذو جننة وإن زهوا

جنونه مدعى ومصطنعا

تحير الناس في جنون قتي

لا عقل إلا بشمه ولما

وبعد ذلك بقليل تتحدث عن دائها ودائه فتقول :

ويح قيس ويح لي أي نأر

للمقادير عند قيس وعندي ؟

أنعب الحى داء قيس ودائى

وتعابى الدواء كهان نجد

كثيراً ما يلجأ جمهور الأدباء - ولا سيما الشاعر منهم - إلى الحيلة تخرجه من مأزق حرج أو مجال ضيق ، وكثيراً ما تلجأ في اصطیاد تلك الحيلة وتسويغها براعة رائعة وخلافة خادعة ، تشهد لصاحبها بطول الباع واليد الصناع ، وتدل على اقتدار في التخلص من الأزمات الفنية والمضايق التصويرية ، فقد يتخيل الأديب في قصته أو الشاعر في ملحمة صوراً تتسلسل بها حوادث ، ويحاول الأديب أو الشاعر أن يرضى على تخيلاته أنواب الواقع المألوف والممكن المعروف ، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ورجاءً يجد نفسه أمام عقبة تصطدم مع الهدف الأسمى الذي يهدف إليه من قصته أو ملحمة ، فلو سارت القصة سيراً مألوفاً لما وصل صاحبها إلى النتيجة التي أرادها ومهد لها وسعى إليها ، وهنا إما أن ينحرف عن هدفه الأول ، وإما أن يقف ليصطنع ما يقضى على تلك العقبة ، ويمهد أمامه الطريق .

انظر على سبيل المثال إلى أمير الشعراء شوقي في مسرحيته الباقية « مجنون ليلى » نجد أن هدفه الأسمى في هذه المسرحية هو أن يبين لك سلطان الهوى العذرى للشبوب على العاشق المضنى ، وأن يرسم أمامك لقيس بن الملوح صورة تتبين منها أن قيساً قد خبله هواه واستبد به العشق ، فترك له من سبيل إلى النجاة أو الشفاء ، وقد أصابه الجنون فما يليق أن يمد في العقلاء ، وها هو ذا شوقي يمرض لنا قيساً وقد صرعه الوجد والهوى ، فما يفيق رغم الصباح والهتاف ، ويقول عنه ابن عوف لزيد راوية قيس :
زيد انظر فما انفك صريع الوجد والذكرى
كما مر بنا الركب ال حسيني به مرا

لا الحواميم تصرف الجن عنا

حين تنلى ، ولا رقى السحر تجدى

أبقيس وبى هوى عبقرى

يسلب العقل من ذويه ويردى

هلة البيسد من قديم وداء

ضاع فيه الرقى وحر الملقى

إذن فالهدف الأساسى — أو من الأهداف الأساسية

فى المسرحية على أقل تقدير — أن يصور لنا شوقى هذا

السلطان القوى العارم للحب الدفين المسكين على نفوس

الحسين الصادقين ، وتتسلسل مناظر الرواية ومواقفها

لتؤكد هذا المعنى ، فتارة نرى قيسا هائما فى الصحارى

والقلوات ، وتارة يسامر النجوم والكواكب ، وتارة

تحترق يده بالنار وهو مع لىلى فلا يشمر ، وتارة

يسائل الليل أو الريح عن حبيبته ، وتارة يتحدث

عن شيطانه الأموى الذى يتحكم فيه ويوحى إليه بشمر

الهوى والصبابة ، إلى غير ذلك من أمارات وعلامات ...

ولكن ها هو ذا شوقى رحمه الله يلتقى فى طريقه

للسلسل عقبة تعترض هدفه ، أو قل إن الشاعر البارع

الصناع قد أوجد هذه العقبة واقتعلتها ، ليحاول

بعد اصطناعها التغلب عليها ، فيفلح ، فيرينا من نفسه

اقتدارا فتزيد له إجلالا وبه إعجابا ؛ « أنتم الناس

أيها الشعراء » ...

هذا هو الفصل الثانى من المسرحية ... وهذه

بدايته ... « طريق من طرق القوافل بين نجد ويثرب

على مقربة من حى بنى عامر ، حيث تبدو مضارب هذا

الحى على مدى البصر وعلى صنفج جبل التوباد ؛ قيس

وزياد جلوس إلى جذع نخلة ، يستشرفان شجعا يسير

نحوهما » ... إنها بلهاء جارية قيس ، جاءت تحمل إليه

دواء يستشفى به ، ممثلا فى شاة مذبوحة ، فيسأل قيس

صديقه : « زياد ماتلك ؟ من الجويرية ؟ أتلك بلهاء » ؟

فيجيبه زياد : « أجل قيس هيه » . وتظهر بلهاء وعلى

رأسها فصعة فيها الدواء الرجو والعلاج المأمول ، فيها

الشاة الحنيذة ، فيسأل قيس : « بلهاء كيف الحى كيف

أميه ؟ » .. إنه يسأل عن أمه العزيزة الغالية ، فلا شك

أنه يوقرها ويحلمها ويرطها ، ويحفظ طاعتها ويدين لها

بالولاء ، ويقابل كل ما تفعله أو تقوله بالطاعة والقبول ،

ولذلك تضع بلهاء القصعة بين يديه قائلة : « تسأل عنك

كإسأت » ولكن قيسا تبدو عليه كراهة للطعام

وعزوف عنه فيقول له رفيقه زياد : « بالله قيس إلا

أكلت » فيشتمد عزوف قيس حتى تعجب الفتاة فتقول :

« زياد ، ما ذاق قيس ولاهما » .

وهنا يحاول زياد أن يثير فى قيس عاطفة البنوة

الوفية للأمم الغالية الرحيمة فيقول له :

طبخ يد الأم يا قيس ، ذق مما

الأم يا قيس لا تطبخ السما !

وما أجل قوله : « لا تطبخ السما » ، وما أوجع

ما فيه من تقريع وتوبيخ ... ثم ينزع زياد غطاء القصعة

ليثير قمارها ، ويفرى قيسا بالليل إليها ، فيروعه أن

يرى فيها ذبيحة من أطيب الذبائح ، فينادى قيسا :

« تعال تأمل قيس تلك ذبيحة » فيجيب قيس : « عسى

اليوم نحر » ولكن لا نحرولا أضحى ، وإنما هى لونة

الحب أذهلت قيسا عما حوله ، فيجيبه زياد : « أين

نحن من الأضحى » ؟ ...

ويرى قيس لحم الذبيحة ، ويتذكر الأنامل العزيزة

التي قامت على طبخها وإعدادها ، أنامل الأم الروم التي

لا تمون ، فيحن إليها ، ويشمر بفداحة مصابها فيه

وفى جنونه فيقول :

أرى صنع أمى يا زياد ، فديتها

بروحى وإن حملتها الهم والبرحا

ستخبرنا بلهاء

ويلوح لزياد بريق من أمل فى لين قيس وخضوعه

فيصرخ فى الفتاة قائلا :

... .. بلهاء بينى

ولا تكتمى عنا الحديث ولا الشرحا

وهنا تقص الفتاة قصة الشاة ، وتبين كيف تعب

القوم فى البحث عن دواء لقيس من دائه ، وكيف جاء

العراف وهو من هو عند العرب فى التفهم والخبرة ،

وسأل عن قيس وبحث عن أمره ، ووصف العلاج الذى

لا يخيب ، والدواء الذى لا يفشل ، وكأنها تريد أن

تقول لقيس : ليس هذا طعاما من الأم خضب ، ولا نفحة

من حتى الأهل فقط ، ولكنه فوق ذلك دواء من طبيب خبير ، وعلاج من نظامى بارع ... لأنها تجيب فتقول :

لقد مر عراف اليمامة بالحى
فما راعنا إلا زيارته صبوحا
طوى الحى حتى جاء عن قيس سائلا
وأظهر ما شاء المودة والنصح

ولاحت له شاة جنوم بموضع
تخيلها ظلا من الليل أو جنحا
فقال اذبحوا هاتيك فالخير عندها
فقام إليها يافع يحسن الذبحا
فقال انزعوا من جثة الشاة قلبها

فلم نال قلب الشاة نزها ولا طرحا
فلما شـويناها رقى بعزائم
عليها ، وألقى فى جوانبها الملحا
وقال اطلبوا قيسا فهذا دواؤه
كأنى به لما تناوله صحاحا

إنها فرصة يجب ألا تضيع ، وإنه العراف الجليل
الذى يجب أن يطاع ، وإلا فقيس رجل يتعنت ويتمرد ،
هكذا يقضى تسلسل الحوادث وطبيعة الأشياء ، ولذلك
يعجل رفيقه زياد فيقول لقيس :

تعلل قيس بالشاة عساها تذهب الحيا
فما العراف بالمجهول لا علما ولا طبا
ولم تعلم عليه البيد تدجيلا ولا كذبا
طبيب جرب اليابس فى الصحراء والرطبا
فدق قيس ولا ترتب بما قال وما نبا
وتلك الأم يا قيس أطمها تطع الربا

ماذا يصنع قيس هنا إذن ؟ ... لقد أخرجته الفتاة
بقصتها للثورة ، وأخرجه زياد بإغرائه العاتب ، فلا بد
له إذن من الاستجابة بولو فى بطنه وتحكم قليل ...
وهذا ما كان ... قبل قيس أن يأكل من الشاة ،
ولكنه لا يأكلها كلها ولا أكثرها ، بل إنه يكتفى
بجزء صغير منها وإن كان جليلا ، إنه يريد قلب الشاة
فقط ، ولا شيء أكثر من القلب ، ولذلك يقول :

زياد اسمع وكن عونى وخل اللوم والعتبا
إذا ما لم يكن بد فإنى آكل القلبيا
القلب ؟ ... إنه شيء حاضر ويسير ، ولا بد أنه
موجود فى الشاة ، فن ذا الذى يجروء على أن يقدم

شاة لمزيزه ويتزع منها أغلاها وهو الفؤاد ؟ ...
لذلك يصرخ زياد فى الفتاة :

قيس يبغى القلب يا بله - هاء أين القلب أيننا ؟
وتفرح بلهلاء لاستجابة سيدها وقرب خلاصه من
دائه فتقول :

هو عندى ويسير ما اشتهى قيس علينا
هو فى الشاة ...

فيأمرها زياد قائلا : « هلمى . أخرجى القلب إلينا » ...
ولكن - وآه من لكن هذه دائما - ...
ولكن إذا ظهر القلب فقد برى قيس المريض ، وبطل
السحر والساحر ، وضاع الهدف الذى يرى إليه الشاعر ،
وهو الإبقاء على تصوير قيس فى صورة المجنون بحبه
الذى لا يقدر على البرء منه ، بل ولا يريد البرء منه ،
وإذن فيجب أن يحتمل شوقى هنا فيبرع فى الاحتيال ،
ويصطنع فيجيد فى الاصطناع ، ويخرج من المأزق
الخرج فيحسن الخروج ، ويفجأ القارىء بعد هذه
المحاورة الطويلة التى ظمها ستمصل إلى نتيجة حاسمة
بما لا ينتظره وبما لا يكون فى الحسبان ... كيف
يحتمل إذن ؟ ... فليجعل بلهلاء تبحث عن القلب فى الشاة
وأتقنه من وجوده مؤمنة بحضوره ، فرحة بقرب الفرج
وذهاب الألم ، ... ثم فليهاجئنا ونحن فى حرارة الشوق
ولطفة الحنين إلى معرفة النتيجة بأن الفتاة قد نسيت
القلب ، لا بل زعته من الشاة بيدها قبل حضورها ،
فتقول :

القلب ؟ ... أين القلب ؟ أين ياترى وضعته ؟
يا ويح لى نسيت أنى ييدى نزعته ؟
وهنا خاب المسمى وفشل الأمل وضاع الرجاء ،
وفترت همة زياد وبلهلاء ، واعتز قيس بموقفه بعد أن
أطالوا عتابه ، فهتف فيهم بالبیت السائر :

وشاة بلا قلب يداوتنى بها
وكيف يداوى القلب من لاله قلب ؟
وهكذا استطاع شوقى البارع أن يفتن فى اصطناع
هذا الحوار الجميل ، وأن يتأدى به إلى تلك العقبة الكؤود
التي حسبناها مستهدم الهدف ، ثم فجأة يبرع فى الخلاص
منها بتلك الحيلة ، حيلة القلب الضائع ...

حقا ، ما أبرع الموهوبين من الشعراء ! ! !

أصمم الشرباضى

المدرس بالأزهر الشريف